بقدر الصعود يكون الهبوط

مَثَل حكيم

لجاكوب كاتس الهولنديّ

ولد جاكوب كاتس في زيلند من اعمال هولندا سنة ١٥٧٧ . وكان محامياً وسياسيًّا وسفيراً وشاعراً. وبعد ما جال في اوربا ووقف على ما شاء من شؤون الناس واطوارهم عاد الى بلاده واشتغل بالمحاماة. ومع شدّة انكبابه في حياته الطويلة على العمل بصناعته هذه كان من وقت الى آخر يتفرّغ لنظم ما يُعْرَف بالشعر التعليميّ ووضع القصص الادبية المغزى بألسنة الطيور والحيوانات على مثال كتاب «كليلة ودمنة» المشهور. فلقيت قصائده وقصصهُ استحساناً عظيماً عند قرّائها. وكان الهولنديون، لفرط شعورهم بمحبته لهم وعطفه عليهم وتحرّيه عمل كلّ ما فيه خيرهم وصلاحهم، يلقبونهُ بالأب كاتس

وكانت قصص الاب كاتس مع قصرها تمتاز ببساطتها ووضوح معانيها وكونها موضوعة على الخصوص لتثقيف العقول وتهذيب النفوس كالقصة الآتية : —

ران الغرور على قلب غيلم[1] — كما يرين على قلوب كثير من الناس — فخُيِّل اليهِ انهُ ليس كمثلهِ في عظمة الاهمية وخطورة الشأن. وسوَّلت لهُ نفسهُ ان يراعي النظير بين حالة عقله وصورة جسده فيستبدل بجبلّته الترابية جبلّةً اكرم مادة واسمى عنصراً وكان عشراؤهُ واصدقاؤهُ قد امعنوا في التأمل فلم يستطيعوا ان يتبينوا فيهِ اقل شيء من ادلة التفوق والنبوغ . ولكنهُ عزا حكمهم هذا الى عجزهم عن ادراك ما بلغتهُ قواهُ العقلية من السموّ والارتقاء . واصرّ كل الاصرار على السعي في إقناعهم باستطاعته ان يتألق في كرة لا يقدرون على بلوغها مهما تشرئبّ اعناقهم اليها

وحدث ذات يوم انهُ رأى نسراً واقعاً على شجرة يستريح من عناء طيران طويل المدى قضاهُ في اعلى طبقات الجوّ . فدنا منهُ . وبعدما تلطّف في تحيته والسلام عليه سألهُ ان يحملهُ على منكبيه ويوغل في الارتفاع بهِ الى اسمى درجة يستطيعها لكي يبرهن لابناء جنسه — النبالم والسلاحف — انهُ اهل للارتقاء الى مقام ارفع جدًّا من

(١) ذكر السلحفاة

مقامه على الارض . ويتمكن من الاشراف على مجالي الارض الرائقة ومظاهر البحار الخافقة ويراقب بزوغ الغزالة من خدرها في الاعالي ووقوع انوارها الباهرة على سطح الارض حيث الغيالم والسلاحف يخبطون في ليل الجهل ويسقطون الى اسفل دركات الانحطاط

فلما فرغ من كلامه ادرك النسر ما كان عليه ذلك المأفون من شدة الزهو والغرور فبشّ به وقال لهُ انهُ على ارتياح مستعد ان يجيب سؤلهُ وينيلهُ ما تصبو نفسهُ اليه. وما عتم ان اقلّهُ وطار به محلقاً في عنان السماء حتى بلغ من الارتفاع مبلغاً اعيا الغيلم ان يرى منهُ وجه الارض او يتبيّن اثراً لما يدبّ على سطحها . وما ابطأ أن اصابهُ دوارٌ شديدٌ جشأت به نفسهُ وعلك الانزعاج فؤادهُ فودّ لو انهُ كان باقياً على الارض ولم يطع نفسهُ الامّارة بالسوء . ولم تكن حالتهُ هذه بخافية على النسر . لكنهُ تجاهلها وظلّ يمعن في الصعود به ، قائلاً لهُ انهُ عامل بما اراد وبالغ به ذروة الرفعة والسؤدد

وظلّ النسر يسمو به ويعلو حتى ارتقى الى حيث لا ترى العين سوى ضياء الشمس ولا تسمع الاذن غير حفيف النسيم . وحينئذٍ التفت الى الغيلم وسألهُ هل طابت نفسهُ وقرت عينهُ بهذه الرحلة الجوية ونال فيها ما شاء من الارتقاء الى اعالي السماء ؟ وهل يود الصعود الى ما هو اسمى وارفع ؟ وهل يعد السكنى هنا افضل منها على سطح الارض

ولكن الدوار والهلع كانا قد اخذا من الغيلم كل مأخذ وبات من جرّائهما ينظر فلا يرى وينصت فلا يسمع ويحاول الكلام فلا يستطيعهُ . واذ ذاك زعق به ابو الابرد [1] زعقة الهزء والاحتقار وقذف به من على ظهره فهوى متخبطاً في انحداره حتى سقط على صخرة صماء تحطم وذهب ضحية غروره أطعمهُ بالمحال وعلّلهُ بنيل مالا ينال

وفي كلّ زمان ومكان اناس كهذا الغيلم يخدمهم الحظ او يسعدهم مع ضعة اصلهم وخسّة نفوسهم وضعف عقولهم فيرتقون بغتة الى اعلى المناصب والمراتب بلا شيء من الاهلية والاستحقاق. وكثيراً ما يعقب هذا الصعود السريع هبوط اسرع منهُ ينحدرون فيه اشد انحدار الى قرارة الذل والعار . ولله در القائل : —

بقدر الصعود يكون الهبوط فإياك والرتب العالية
وكن في مكان اذا ماسقطتَ تقوم ورجلاك في عافيه

(١) كنية النسر